

المقدمة عن الجغرافية الطبيعية للشرق الأوسط

للاستاذ محمد سعيد نصر

مقدمة :

في هذه المحاولة المتواضعة ، التي أرسم فيها صورة مبسطة للجغرافية الطبيعية بمجموعة دول الشرق الأوسط ، لأقول إن هناك - بالضرورة - تشابها إقليميا فيما بينها بعضها وبعض . فكل قطر منها كيانه الخاص من الناحية الإقليمية . ما في ذلك شك . ولكن هذا لا يفي أن هناك رباطا متينا يربط تلك الأقطار بعضها ببعض ، ويكون من مجموعها منطقة لها صفاتها المميزة بين المناطق الكبرى التي ينقسم إليها العالم . وهذا الرباط مكون من عناصر كثيرة مؤتلفة ، منها البشري الطبيعي كالتوزيع والتضاريس والمناخ إلخ . ومنها ما هو بشري كاللغة والدين والثقافة ووحدة الآلام والآمال ، فإذا راغبنا هذا وحققنا ما نحاول تصويره ، فقد وصلنا إلى ما ينبغي أن تكون عليه الدراسة الجغرافية أي كان منهاجها ، وحققنا مبدأ « الوحدة في الاختلاف Diversity within unity » الذي يجب أن تسمو إليه كافة الدراسات .

وواضح أنه لزام على كل مثقف من شعوب الشرق الأوسط أن يتعمق في دراسته لشئون أقطاره المختلفة، يتعرف الأسس والأصول التي يستطيع أن يفسر بها مجريات الحوادث التي تتدافع في دوله ، وكلها ذات نواح جغرافية، والظواهر الطبيعية أولى تلك الأسس والأصول التي يجب البدء بها في دراساتنا . وسنقصر الكلام الآن على الجغرافية الطبيعية لشبه الجزيرة العربية (بما

في ذلك الشام والعراق) مرحئين مجموعة الدول الشمالية الشرقية (تركيا -
إيران إلخ . . .) والمملكة المصرية إلى مقال لاحق .

تقع شبه الجزيرة العربية في جنوب غربي قارة آسيا . بين خطي عرض
٣٠° و ٤٥° شمالاً ، وخطي ٣٠° و ٦٠° شرقاً . ويحدها
في الغرب البحر الأحمر ، وجنوباً خليج عدن والمحيط الهندي ، وشرقاً خليج
عمان والخليج الفارسي . أما حدودها الشمالية فصعبة التحديد ، فإذا اعتبرنا
شبه جزيرة العرب نفسها يكون هذا الحد قوساً يتجه نحو الشمال ، ويبدأ من
العريش ، ثم يمر بحدود فلسطين الجنوبية . ثم يتجه شمالاً حتى مدينة تدمر ،
ثم شرقاً حتى حدود العراق ، ثم إلى الجنوب الشرقي حتى مصب شط العرب .
أما إذا أدمجنا العراق والشام ، فإن الحد يندفع إلى الشمال حتى يتأخم هضاب
أرمينيا والأناضول .

هذا الموقع يجعل من بلاد العرب معبراً يمر به الطرق بين قارتى آسيا وإفريقيا
وبين هذه وأوروبا من جهة ، والشرق الأقصى من جهة أخرى . وأيضاً
الطريق البري بين أوروبا وإفريقية . وقد كان لانتشار الصحراء في قلب
بلاد العرب أن صعب اختراقها ، واقتصرت الطرق على « الهلال الخصيب »
الذي يمتد من البحر المتوسط حتى الخليج الفارسي ، بحيث أصبحت الدولة
التي تبسط نفوذها عليه ذات مركز ممتاز من أقدم العصور ، من الناحيتين الحربية
والدولية .

فالعزلة في بلاد العرب تكاد تكون قاصرة على الجهات الصحراوية فيها
كالربع الخالي ، وصحراء النفود وهي البقاع القاحلة الجافة . أما فيما عدا ذلك
فالاتصال سهل فيما بين أقسام بلاد العرب بعضها ببعض وفيما بينها وبين العالم
الخارجي .

الهضبة :

ليس في بنية بلاد العرب تعقيد كثير ، فإذا استثنينا عمان وعُي في بنيتها و جيولوجيتها تنتمي إلى هضبة إيران الالتوائية في الناحية المقابلة للخليج الفارسي ، نجد أن بلاد العرب هضبة رصينة أساسها صخور نارية قديمة متبلورة كالجرانيت . وهذه الصخور ظاهرة في مساحات واسعة في الحجاز ، وفي مرتفعات البحر الأحمر ، وفي المرتفعات الداخلية . أما في الشمال والشمال الشرقي ، أي في مساحات كبيرة من شمال شبه الجزيرة والشام و صحراء الشام ، فتغطي هذه الصخور النارية القديمة صخور جيرية طباشيرية ملتوية قليلا . وإلى الشمال من هذه البقاع يحل محل هذه الطبقات الجيرية ، طبقات أخرى أحدث منها حتى تصل إلى الجبال والهضاب الالتوائية في الأناضول وأرمينيا وإيران .

وهناك كثير من الصخور البازلتية (أو اللافا البركانية) في جهات كثيرة من بلاد العرب . تشير إلى ثوران البراكين في العصور الجيولوجية الحديثة وأكبر مساحة لها في هضبة اليمن . أما سهول الفرات ودجلة فهي سهول رسوبية كونها هذان النهران ، وهي تمتد تدريجاً في الخليج الفارسي . فلقد كانت البصرة في القرن الرابع قبل الميلاد ، واقعة إلى مسافة قليلة من البحر مما الآن فقد انحسر عنها بما يجلبه هذان النهران من الرواسب . أما البحر الأحمر فهو انكسار أخدودي يمتد شمالاً في خليج العقبة والبحر الميت ووادي نهر الأردن .

الهضاب اليمن

وببلاد العرب هضبة مرتفعة تنحدر بالتدريج من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي ، وتبلغ أقصى ارتفاع لها في الجنوب الغربي (اليمن) ، فترفع الهضبة

ارتفاعاً فجائياً من ساحل البحر الأحمر إلى بضعة آلاف من الأمتار (٢٠٠٠ - ٨٠٠٠ قدم) ولا تترك إلا سهلاً ساحلياً ضيقاً لا يتجاوز عرضة ٣٠ ميلاً . وانحدار الهضبة من الجنوب الغربي والغرب إلى الشمال الشرقي والشرق منتظم وتدرجي . حتى تصل إلى سهول العراق . ولا يشذ عن هذه القاعدة إلا الجبل الأخضر في عمان الذي يطل على خليج عمان .

وتضاريس الشام تستحق عناية خاصة : فعلى طول الساحل . خصوصاً في فلسطين ، يوجد سهل ساحلي ، يليه نحو الداخل سلسلة من المرتفعات تمتد من الشمال إلى الجنوب وتعرف بحبال لبنان في الشمال . ومرتفعات غرب فلسطين في الجنوب . ثم يلي ذلك منخفض طولي يشغله نهر العاصي في الشمال . ونهر الأردن والبحر الميت في الجنوب . ويلي ذلك شرقاً سلسلة جبلية أخرى تسمى الجبل الشرقي في الشمال . ومرتفعات شرق الأردن في الجنوب . ثم يلي هذا نحو الشرق الهضبة الكبرى نفسها .

أما سهول العراق فرسوية ارتفاعها ٥٠٠ قدم في المتوسط وهي نتيجة للرواسب الكثيرة التي جلبها ويجلبها دجلة والفرات من المرتفعات الشمالية لهضبة أرمينيا .

ويلاحظ أن للجفاف السائد في معظم بلاد العرب أثراً كبيراً في سطحها فيمتاز بالرمال التي تغطي كثيراً من أجزائه . وبالشكل القبابي الذي نشاهده في الجبال الصحراوية عامة ، وبالكثبان الرملية المتقلبة والوديان الجافة . وكل هذه تجعل للصحراء طابعاً خاصاً في كون تضاريسها مملدة ليس فيها ذلك التنوع والانتقال الفجائي من مرتفع إلى منخفض ، إذا استثنينا الجهات الشمالية في شمال العراق وبلاد الشام في جهاتها الساحلية الجبلية .

المناخ

وببلاد العرب قريبة من خط الاستواء ، ولذلك فحرارتها شديدة ، خصوصاً في فصل الصيف لاسيما إذا راعينا خلوع معظم جهاتها من الغلاف النباتي ، وبهذا

تعتبر بلاد العرب من أشد جهات العالم حرارة . خصوصاً عند ساحل الخليج الفارسي وساحل البحر الأحمر الجنوبي ، حيث تقترن الحرارة بالرطوبة ، مما يجعل الجو غير ملائم لسكنى الأوربيين ، ومع ذلك ففي الداخل — في وسط وشمال بلاد العرب — حيث يبلغ متوسط ارتفاع السطح . . . ٣٠ قدم ، نجد أن أيام الصيف الشديدة الحرارة يعقبها الليل المعتدل البارد ، أما الشتاء فجوء جميل منشط منعش لا اعتداله ، وكذلك الحال في مرتفعات عسير واليمن وعمان ، وفيها حرارة الصيف أقل شدة في المتوسط . أما الشتاء فبارد بوجه عام .

وفي البقاع الصحراوية الشمالية نجد أن الفرق كبير جداً بين حرارة الصيف والشتاء ، وبين حرارة النهار والليل ، أي أن كلا من المدى السنوي واليومي للحرارة كبير . ففي الحائل (في صحراء النفود على خط 28° شمالاً تقريباً) قد تنخفض درجة الحرارة شتاء من 35° م بعد الظهر ، إلى مادون الصفر بكثير في الليل . وبينما نجد الصيف في المدينة حاراً جداً ، فقد تتجمد المياه فيها في ليالي الشتاء . أما في اليمن فيلطف الارتفاع والأمطار الموسمية من قيظ الصيف .

وتأثير البحر مأموس بالشام وخصوصاً في الجهات الساحلية ، وتغطي الثلوج قمم الجبال في مرتفعات لبنان ، خصوصاً في الشتاء ، والجو عموماً معتدل شتاء (حوالي 13° م) حار صيفاً (28° م) . أما العراق فأكثر قارية فهو معتدل بارد في الشتاء كالشام ، ولكنه في الصيف حار جداً (أكثر من 30° م) .

وبلاد العرب واقعة في منطقة الضغط المرتفع المداري ، وتعتبر امتداداً شرقياً للصحراء الكبرى ، ولذلك فهي — بوجه عام — ذات أهوية ساكنة وتيارات هوائية نازلة في معظم أيام السنة (عدا الصيف) إلا أن الأطراف الشمالية والجنوبية معرضة لهبوب رياح من الغرب في الشمال ومن الشرق عند الساحل الجنوبي وتهب على الشام والعراق أعاصير البحر المتوسط شتاء ، أما اليمن فتهب عليها الرياح الرسمية الجنوبية الغربية صيفاً .

وقلما تسقط الأمطار في قلب بلاد العرب . أما في الشمال فيسقط قليل من المطر فيما بين أكتوبر وإيريل . ويزداد كلما انجبتنا شمالا حتى الشتاء والعراق حيث تهب الرياح العكسية بأعاصيرها المعتدلة الممطرة . ويسقط في العراق الأدنى ما يقرب من ١٠ بوصات من المطر . وفي غزة ١٦٠٥ بوصة وفي يافا ٢٣ بوصة ، وفي حيفا ٢٧ . وفي بيروت ٣٥٧ . بينما يطول فصل سقوط المطر أيضا من الجنوب إلى الشمال : فعدد الأيام الممطرة في غزة ٤١ يوماً ، وفي يافا ٥٩ ، وحيفا ٦٢ . وبيروت ٨٢ . وأما اليمن فأمطارها صيفية من الرياح الموسمية الجنوبية الغربية ، التي تهب على الحبشة أيضا فتسقط الأمطار على الحبشة واليمن سواء ، ولا بد للرياح الموسمية من مرتفعات تقابلها لتسقط أمطارها عليها . لهذا نجد أن ساحل تهامة يكاد يكون عديم المطر في الوقت الذي تسقط فيه الأمطار على المرتفعات الجنوبية الغربية لليمن . (يونه ٤ بوصات ، ويوليه ٥٥ ، وأغسطس ٥٨ . وسبتمبر ١٩) وفي عدن ما يقرب من ٣ بوصات في هذه الشهور الأربعة .

النبات

وليست بلاد العرب كلها صحراء قاحلة ، بل يمكن تمييز الأقسام الآتية فيها :

(١) صحراوات يجب على عابريها أن يتزودوا بالماء والطعام في سفرهم فيها (٢) أقاليم حشائش فقيرة أو شبه صحراء أو استبس (٣) واحات وأراضي زراعية .

والصحراوات أنواع : فالدهناء سهول من الحصى والحصاء تتخللها مساحات وشقات من الرمال ، وبالزغم من احتمال وجود الماء على عمق كبير ، إلا أنها فواصل قاسية في وجه المسافرين . والنفود : مساحات واسعة من الحصى والحصاء

حوادثها الرياح إلى كشبان رملية . واحد وراء الآخر . أما الأحقاف : فأرض الكشبان الرملية . والرمال الناعمة ولا يمكن عبورها إلا في مناطق ضيقة . لصعوبة السير فيها . أما الحرة : فاسم يطلق على المساحات البازلتية ويدهى نعل من يمشى عليها كما تقطع أخفاف الجمال . وأكبر مساحة للأقاليم الصحراوية توجد في الجنوب (الربع الخالي أو ديار عاد) وتفصل السواحل فصلاً تاماً عن قلب بلاد العرب ، كما تفصل صحراء النفود الشام عنه . ويلاحظ أن الصحراوات تحتضن وسط بلاد العرب على شكل قوس محدب من جهة الخليج الفارسي .

وأما شبه الصحراء أو الصحراء الليفة كما تدعى أحياناً، وهي الغالبة في بلاد العرب ، فجهات سطحها إما جامد أو مترب ، مسنو أو موج ، به آبار وعيون طبيعية متناثرة وحشائش دائمة النمو في المنخفضات . ويعيش عليها قبائل البدو يرعون إبلهم وأغنامهم .

وأما الواحات والأراضي الزراعية فتقع في إقليمين : (أ) في الوسط الذي حوله توجد الصحراوات (ب) على السواحل وفي الهلال الخصيب (أ) في وسط بلاد العرب ، أو في إقليم نجد . توجد ثلاث مجموعات من الواحات ، متصلة بعضها ببعض إلى حد كبير : أولها جبل شمر ، ويستمد مياهه من مرتفعين ، وبه مدينة الحائل والفيض ، وحوالي عشرين قرية . وثانيتها قاسم وترجع خصوبتها إلى المياه الأرضية الدائمة الآتية من وادي الرمة وبه بلدتا عنسيرة والبريدة ، والأسواق التجارية في قلب بلاد العرب ، وحوالي خمسين قرية أخرى . أما الثالثة فهي نجد أكبرها وأهمها إلى درجة أطلق معها اسمها على كافة قلب بلاد العرب وأكبر بلدانها الرياض وتقع في الواحة الوسطى .

ب — أما الأراضي الخصيبة التي تحف ببلاد العرب ، ففي اليمن والجنوب الشرقي ، كما توجد في الشام والعراق ، حيث الزراعة والاستقرار . ففي الشرق توجد

قبائل مستقرة في الأحساء والكويت على شواطئ الخليج الفارسي . ومن ذلك على سواحل خليج عمان (إقليم الباطنة) . أما الساحل الجنوبي فصحراوي حتى خط طول ٥٥ شرقاً ، وبذلك نجد بقاعاً خصيبة خضراء . تمتد نباتاتها في الوديان الممتدة من الهضبة في الداخل نحو الساحل . أما في اليمن وعلي الشواطئ الجنوبية للبحر الأحمر ، فيوجد إقليم ساحلي منخفض خصب في فتحات الوديان الممتدة نحو الداخل . وخالقه مرتفعات خضراء . من الأمطار الموسمية . وحتى على القمم العالية تكفي الأمطار نحو الأحياء المنخفضة . وفي هذا الإقليم ينمو بن محاليبي المشهور . الذي ترجع جودته في الغالب — إلى الضباب الذي ينتشر قبل زوايح الصيف . مما يساعد على تزويد النبات بالرطوبة اللازمة ، ويخفف من حدة حرارة الشمس القوية صيفاً . وتوجد مزارع عادة على مدرجات فوق سفوح التلال . وهناك خزانات للمياه تستخدم للري بالإضافة إلى الأمطار والضباب الكثيف . أما على السواحل الشمالية للبحر الأحمر فتقل البقاع الخصيبة . وينقسم الحجاز على العموم إلى قسمين رئيسيين يفصلهما جزء من الأرض غير أهل ، سطحه وصخوره من نوع الحرة ، ممتداً من الداخل حتى البحر الأحمر . وتقع الطائف إلى مسافة من مكة ، وهي واحة غنية تعتمد عليها مكة اعتماداً كبيراً في غذائها .

أما العراق فنظراً إلى استواء سطحه واعتدال مناخه ، وإروائه بمياه دجلة والفرات ، فهو أرض خصيبة زراعية منذ القدم ينتج الشعير والبقول والأرز والذرة والنخيل الذي ينمو نمواً باهراً ، حتى ليقال « إن أزهي النخيل وأوفره إنتاجاً هو الذي ينمو بالعراق ومصر العليا » ويشتهر بالتمر على الخصوص إقليم شط العرب . ويصدر العراق ٨٠ ٪ من المجموع (أكثر من ١٣٠ الف طن في المتوسط في العام) .

أما الشام فينتهي بوجه عام إلى إقليم البحر المتوسط . ولكن بسبب تفاوت السطح والتربة وتنوع الغلات والنباتات . ففي السهول ينمو القمح والشعير والذرة

واللخن والشوفان والسهم والحمس إلى غير ذلك . كما تنمو الخضراوات والزهور المختلفة . وعلى السفوح الواطئة ، وكذلك في السهول تنمو أشجار البرتقال والزيتون والقواكه الكثيرة، فإذا زاد الارتفاع نمت الأشجار الدائمة الخضرة مثل البلوط والأرز . كما تنمو الحشائش التي يربى عليها ألوف الماشية والأغنام . وكما اقتربنا من الصحراء جف العشب ونمت خصل الحلفاء حتى يكاد ينعدم إذا ما وصلنا إلى صحراء الشام شرقاً .

بعد هذا العرض السريع نستطيع أن نتبين في بلاد العرب الأقاليم الطبيعية الآتية :

أولاً - شبه الجزيرة نفسها - وتنقسم إلى الأقسام الآتية :

١ - الأقليم الشمالي - وهو قاحل ذو سطح حجري في الشمال ورمل في الجنوب وتنمو به الحشائش في بعض الفصول وأهله من البدو الرحل ويشتغلون بالرعي .

٢ - الأقليم الأوسط - ويشمل الحجاز ونجد والاحساء وأغلبه جاف حجري أو مغطى بالرمال ، أو تنمو عليه الأعشاب الفقيرة المسماة استبس ، وبه قليل من العيون والآبار ، إلا أنه في الوديان أو حيث توجد التربة الخصبة يعيش أناس كثيرين على الزراعة .

٣ - الأقليم الجنوبي - ويشمل هضبات عسير واليمن في الغرب والجبل الأخضر في عمان في الشرق . ومناخها معتدل نظراً إلى الارتفاع العظيم وقربها من البحار ، والسكان في هذه البلاد مستقرون ويعيشون على الزراعة في الجهات الخصبة .

ثانياً - الشام -

ويختلف مناخها باختلاف الجهات، ولكنه في جملة يتبع إقليم البحر المتوسط في مناخه ونباتاته . وأرض أهدود الأردن تكاد تكون مجدبة إلا من الكاد القليل . وبعضها صحراء تقطنها قبائل رحالة ترعى الإبل والضأن والمعز .

ثالثاً - أراضي دجلة والفرات - وهي متنوعة التضاريس . ففي الجنوب

الأراضي سهبية إلا من أطال قليلة الارتفاع هي آثار بابل القديمة . تنتهي مستنقعات حول شط العرب . مملأى بالبعوض والحمى . ومناخ هذا الجزء ، يشبه مناخ الشام في الشتاء ، إلا أن الأمطار أقل ، وفي الصيف أشد حرارة وجفافاً . ولقد بلغ من جفافه في الصيف أن توقفت الزراعة هناك علي الري ، وحيث وجد الماء جادت الأرض بغلات وفيرة . ولذلك نجد أن لهذا الجزء من العراق مستقبلاً زراعياً عظيماً . هذا هو العراق الأدنى الذي ينتهي شمالاً بخط عرض بغداد ، أو شماله بقليل .

أما العراق الأعلى (آشور) فأكثر ارتفاعاً ، وفيه وديان كثيرة ذات سطح

موج ، تكسوها الحشائش في الربيع ، ولكن كثيراً من الأراضي مجذب بسبب الرواسب

الملحية والقلوية .

أما كردستان — فهي في الجهات الجبلية الوعرة في أقصى الشمال الشرقي .
ويعيش الأكراد هناك على الرعي ، وعلى
الزراعة عند التقاء الوديان الصغيرة بدجلة ،
وفي السهول المرتفعة الحصينة التي تسمى
السلمانية .

أما الحافة الصحراوية — التي تنتهي بها سهول العراق نحو الغرب فسهول
مرتفعة من الحصى والرمل يسودها الجفاف
والقحل والملل .